

في حضرة الموت...

الإكليريكي رامي فاضل

منذ بضعة أشهرٍ عثرت على مقالٍ في إحدى الصفحات الإلكترونية تنقل خبراً مفاده أنّ راهباً يسوعياً هولندياً الجنسيّة رفض مغادرة مدينة حمص يوم كانت الأمم المتّحدة تجلو السكّان عن المدينة المحاصرة هذه. يومها نسختُ الرابط إلى صفحتي على "الفايسبوك"، وعلّونتهُ بعبارة "برسم ضمائرنا". ذهلتُ لصدود هذا الراهب ومن غيرته على أهل حمص، ذهلتُ للأمل والرجاء اللذين لخصهما في وداعة وجهه، ذهلتُ لتحديّه الموت بهذه البساطة والمحبة...

يومها قارنتُ بين سلوكه وسلوكنا، قارنتُ بين شجاعته وتخاذلنا، بين محبّته وأحكامنا المسبقة، بين الغنى الذي يعيشه بالرغم من الحصار، وبين الفقر الذي نعيشه بالرغم من الترف والقشور... يومها صُدمتُ!

استمرّت هذه الصدمة إلى اليوم السابع من شهر نيسان، بحيثُ أتت الصدمة الثانية لتحلّ مكان الأولى... لقد قُتلَ الأب فرانس فاندر لوخت اليسوعيّ بطلقتين في الرأس أمام دير اليسوعيّين في حمص القديمة. قتلُهُ مُلثّمان من الشعب الذي أحبه وأمضى قرابة الخمسين عاماً في خدمته...

أكان عالماً بإمكانية استشهاده؟ بالطبع نعم!...

أكان يتشهى الردى؟ أكان يريد الموت؟ بالطبع لا!...

لقد أحبّ الحياة لدرجة الشهادة، ففي الإيمان المسيحيّ لا حياة من دون حرّية، ولا حرّية من دون محبة، ولا محبة من دون وفاء والتزام...

لقد التزم الأب الشهيد فرانس فاندر لوخت قضية الشعب السوريّ حتّى الموت، لقد أحبّ هذا الشعب، وأحبّ له الحرّية، فتمنّى له الحياة، فتجرّع الموت حبّاً للحياة!

في حضرة الموت يبتسم القديس، ينفعل البطل، ويموت الجبان مئات
المرّات قبل المنيّة! ...

أما أنت أيّها الأب الجليل فأظنّ أنّ الموت ارتعب أمامك! أظنّ أنّ الموت
أحنى رأسه أمامك ليرتفع رأسك إلى السماء! ...

لقد قتلت فينا صورة المسيحيّ الجبان، لقد قتلت فينا صورة الدميّ، لقد
صفعت لامبالاتنا بيدٍ من حديد.

ففي موتك أيّها القديس كنت أنت القاتل ولم تكن القتيل! ...

أذكرُ شرقنا في حضرة يسوع يا فرانس! أذكر نفوسنا السقيمة؛ أذكر
خوفنا؛ أذكر ضعفنا يا حامل كأس الموت بيدٍ المحبّة! ...



أذكرنا يا أبت... وليبقَ صدى صوتك يتردد في بلاد الموت حتى القيامة :
نحن نحبُّ الحياة! نحبُّها حتى الموت!....

